الفصل الثالث

الحوار بين الغرب والإسلام

1 ـ شروط الحوار
2 ـ لماذا يكيل الغرب بمكيالين؟
3 ـ الهولوكست ـ اللاسامية المزعومة ابتداع صهيوني لمنع الحوار بين الإسلام والغرب .
4 ـ مؤتمر دولي للإرهاب طريق لحل مشكلة تعوّق الحوار .
5 ـ الهجوم الأمريكي على الإسلام بدل الحوار بين الشعوب .

الغرب والإسلام ..شروط الحوار ومعوقاته:

في سياق ما يسمى بالحوار بين الإسلام والمسيحية تختفي حقائق كثيرة أو تستبعد من الحوار، ويبقى الأمر كأنه بين أصحاب عقيدتين عاشوا قروناً في عداء مستمر حتى جاء الوقت ليفتحوا عقولهم وصدورهم ويتحاوروا.

لقد جرت عبر القرون معارك دامية بين الشرق الإسلامي والغرب، وكان شعار الصليب الذي يعتبره الغربيون رمزاً للمسيحية مرفوعاً في الواجهة على الرغم من ما يختفي وراءه من نوايا وأهداف، أفصحت عنها الوقائع الدامية التي حدثت في الشرق.

صحيح أن صراعاً دامياً استمر بين المسلمين وحملة الصليب الغربيين إبان الحروب الصليبية، وصحيح أيضاً أن الإسبان أقاموا باسم المسيحية محاكم التفتيش وقتلوا خلالها عشرات الآلاف من المسلمين.

صحيح هذا وذاك، ولكن قد لا يكون صحيحاً أن الصراع بين الغربيين والمسلمين هو صراع بين المسيحية والإسلام، وعليه فإن الحوار الذي يطلقون عليه الحوار الإسلامي المسيحي قد لا يكون صحيحاً أيضاً، وحسب المنطق الصوري فإن سبباً غير صحيح لا يؤدي إلى نتيجة صحيحة ومنطقية.

من هنا كان علينا بادئ ذي بدء توضيح بعض الحقائق التي لا بد من إظهارها دون تزييف أو تحوير.

أولاً: هل يعني الحوار بين الإسلام والمسيحية حواراً بين الإسلام والغرب؟

ثانياً: هل يعني الحوار بين المسيحية والإسلام أنهما عقيدتان غير متفاهمتين وبينهما صدام قديم متجدد؟

لقد عقدت مؤتمرات عدت تحت شعار الحوار الإسلامي المسيحي إن كان ذلك في إطار جمعيات رسمية أو كان في إطار بعض الدول.

ولسنا هنا بصدد الحديث المفصل عن هذه اللقاءات، إنما نكتفي بالإشارة لها باعتبارها شواهد على الحوار المسيحي الإسلامي، وهذه المؤتمرات أبرزت إمكانية الحوار بين المسلمين وغيرهم.

ولكننا لو نظرنا ملياً إلى هذه الحوارات واللقاءات والمؤتمرات لوجدنا أن الذي يمثل الطرف المسيحي في الحوار هم المفكرون الغربيون وبعض رجال الكهنوت المسيحي الغربي، وهذا يؤكد أن الحوار هو بين المسلمين ومسيحيي الغرب، ونرى أننا لا نقول: إن مسيحيي الشرق كانوا مغيّبين، إنما الذي نراه أنه ليست هناك مشكلة بين الإسلام وبين نصرانية الشرق، بل نستطيع القول ونحن واثقون من ذلك أنه ليس ثمة صدام أو تصادم بين الإسلام ونصرانية الشرق.

لقد افترض بعض الباحثين أن العداء بين مسيحية الغرب والإسلام لا يقتصر على حقل المعتقدات بل تصل تظاهراته ومظاهره إلى سائر الأنشطة الفكرية والعلمية للمؤمنين بهما، وافترض أيضاً أن المسيحية في نظرة إسلامية رائجة ـ ديناً غربياً وإيديولوجية استعمارية إمبريالية بررت أشد المظالم وحشية في تاريخ العالم الحديث والمعاصر، فهل حقاً أن العداء بين الإسلام والمسيحية سببه المعتقدات؟ وهل صحيح أن المسيحية دين غربي، وأيديولوجية استعمارية في نظر المسلمين أو بعضهم؟

فالإسلام من حيث النظرية أو من حيث النص الشرعي المستند على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يوضح الموقف من النصرانية بشكل جلي لا تأويل له سوى ما وضح منه وحُدد، يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[آل عمران: 199].

وأعتقد أن النص القرآني واضح لا يحتاج إلى تفسير، ويقول تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المائدة: 82 ـ 83].

أما في السنة الشريفة فقد جاء في أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ : «من آذى ذمياً فليس منا» .

وقوله : «من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة ومن خاصمه خصمته» ويتضح أن مجرد الأذى أياً كان نوعه فإنه أذى لرسول الله ـ ﷺ ـ ولن نعدد مسيرة الوقائع الإسلامية الدالة على نظرة الإسلام للنصارى ، ويكفينا أن النصوص الشرعية تبيّن بوضوح أنه ليس بين المسلمين والنصارى أي عداء ، وموقف المسلمين في الصراع مع الروم لم يكن صراعاً مع المسيحية ، إنما كان صراعاً ضد تواجد استعماري جثم على الأرض العربية أكثر من ستة قرون ، فإذا كانت تحكمنا مسلمين ومسيحيين نصوص منزلة من السماء تدعو للإخاء والمحبة والمساواة فأين العداء وأين الصدام؟

هذا على المستوى النظري وأظن أن مسار التعامل الحياتي بين المسلمين والنصارى في الوطن العربي لم يكن في مجمله إلا حياة طبيعية لشعب واحد وأمة واحدة .

فعندما ندعو إلى حوار بين الإسلام والمسيحية فإننا نلغي حقائق قرآنية وإسلامية مصدرها القرآن الكريم والسنة الشريفة ، لأننا بدعوتنا لما يسمى حواراً يعني تماماً أن هناك عداء متأصلاً يجب أن ينقلب إلى مصالحة من خلال الحوار .

وأعتقد أن نصرانية الشرق والعروبة ليست بحاجة إلى حوار مع الإسلام لأنه ليس ثمة عداء لاعتبارات الانتماء لعروبة واحدة ، وهذه العروبة تتزاوج مع الإسلام فلا عروبة بلا إسلام ، ولا إسلام بلا عروبة ، وهذه حقيقة يجب التسليم بها ، ونوضح هنا أن قولنا : لا إسلام بلا عروبة ، فإننا نعني أن أي مسلم في العالم يقرأ القرآن عربياً واضحاً ، وهذا يعني أيضاً أن هذا المسلم فيه من العروبة ما فيه ، وليس بالضرورة عرقه وجنسه إنما يكفي حبه للعربية وللغة القرآن الكريم .

ولا نكون متعصبين إذا ذكرنا الأمور التالية :

1 ـ العقيدة النصرانية عقيدة عربية شرقية والمسيح ـ عليه السلام ـ نبي شرقي من قلب هذا الوطن العربي من فلسطين / القدس/ بيت لحم/ الناصرة . وعندما دعا الوثنيين إلى ديانة التوحيد فإنه بذلك كان يؤدي رسالته السماوية التي لا تختلف

عن رسالات الأنبياء، بدأ المسيح رسالته في المنطقة بادئة من فلسطين، ومنتشرة في بلاد الشام، ووصلت اليمن، ومنها إلى الحبشة، ويعني ذلك أن العرب في هذه المنطقة هم من حمل رسالة المسيح التوحيدية، وهم الذين تجذروا في المنطقة منذ فجر التاريخ، وهذه الرسالة تدعو إلى التسامح والتساوي والعدل ونبذ الاستكبار والعنصرية بل وتحارب جميع أشكال الفوقية.

2 ـ مضت عشرات السنين إن لم نقل مضى أكثر من قرنين ونصف حتى دخلت العقيدة النصرانية أوروبا، وباختصار تبنّت روما المسيحية أيام قسطنطين ولم يمض وقت طويل حتى تبنى أبناء جنوب أوروبا هذه العقيدة، ومعلوم لدى الغرب المسيحي كيف استُغلت المسيحية أبشع استغلال لا سيما في حرب المذاهب المسيحية ضد بعضها، وتبني سياسة الإبادة الجماعية لبعض الفئات المسيحية المعارضة للمذهب الملكاني.

3 ـ ونستطيع أن نذكر هنا أن المسيحية الغربية نقلت وبأسلوب عجيب مركز التقديس المسيحي والمرجعية المسيحية من القدس إلى روما الفاتيكان ـ ونعتقد أنه من حقنا أن نتساءل: بأي حق ينقل مركز التقديس المسيحي والمرجعية المسيحية من القدس إلى روما؟

وما الغاية من وراء ذلك؟

وإذا كان الغرب يمثل الطرف المسيحي في الحوار فإن ذلك يعني أن مركز الإشعاع المسيحي هو أوروبا وليس فلسطين، وأن المسيح إيطالي وليس فلسطينياً، وعلى أية حال فنحن مقتنعون تماماً بأن العقيدة النصرانية هي عقيدة توحيدية عالمية، وأن الإسلام أيضاً عقيدة إنسانية عالمية، ولكن لإنصاف التاريخ والجغرافيا لا نستطيع أن ننكر كون عيسى ـ عليه السلام ـ من فلسطين، وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة، وإذا كان ثمة تصادم بين المسيحية والإسلام على سبيل الافتراض فإن من حق المسيحيين والمسلمين العرب حل إشكالية التصادم من خلال الحوار المفترض.

إذن فالحوار القائم والذي سيتابع ليس بين المسيحية والإسلام! إنما هو بين الإسلام والغرب، بين أصحاب عقيدة وبين أنظمة غربية متنصّرة.

وقع العداء بين الإسلام والمسلمين من جهة والغرب من جهة ثانية منذ أمد بعيد، منذ الحروب الصليبية، وتجذّر العداء وتعمق حتى بلغ أوجه عندما احتل الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى الوطن العربي وفككوا الخلافة الإسلامية، ولم يكن الصراع بين إسلام ومسيحية، إنما كان صراعاً بين إسلام وغرب استعماري، وفي الطرف العربي الإسلامي كان الشعور السائد أن المسيحية استُلبت، وأن هذا الغرب لا يمثل بأي وجه من الوجوه المسيحية بينما كان الشعور السائد لدى الأوربيين هو العداء لأمة الإسلام ليس لأنهم ينتمون إلى العقيدة النصرانية، بل لأنهم غربيون أصيبوا بعقدة التفوق والاستكبار ضد الشرق الذي اعتبروه متخلفاً وضعيفاً.

لقد أفصح قادة الغرب عن عقدهم العدائية تجاه الإسلام في مناسبة وغير مناسبة، ولعلنا نذكر الجنرال غورو الذي احتل دمشق وهو يضع رجله على جدار قبر صلاح الدين ويقول: ها نحن عدنا يا صلاح الدين.

ولعلنا نذكر أيضاً قول الجنرال الإنجليزي اللنبي عندما دخل مدينة القدس: الآن انتهت الحروب الصليبية.

هل هناك إمكانية للحوار بين الإسلام والغرب؟

ليس مستحيلاً أن يجري حوار بين الإسلام والغرب إن كان يؤدي إلى التقدم الإنساني والحضارة الإنسانية المشتركة، ولكننا نعتقد أن لكل حوار مهما كان حجمه مرتكزات ومستلزمات حتى يتحقق.

نحن لا ننكر أن عداءً موجوداً بين الإسلام والغرب، ولا ننكر أن هذا العداء قد يغذى حتى يصبح حرباً مدمرة على المستوى النفسي والمادي، وقد يفتر حتى يتيح المجال للقاء وحوار، فكيف يمكن أن يفتر هذا العداء، وكيف يمكن أن يتضخم حتى يصبح حالة جماهيرية كاسحة.

في ظل الوضع العالمي السائد الآن تعمل أوساط كثيرة على تغذية العداء للإسلام كعدو بديل عن العدو الشيوعي السابق، ويرى المرء أن الأزمات المتفجرة في أنحاء عدة من العالم كالبلقان وأفغانستان والشيشان وفلسطين وغيرها دفعت بالقادة والسياسيين

والمفكرين الغربيين للإفصاح عن آرائهم تجاه الإسلام والمسلمين خاصة بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، باعتبار أن هذه الأزمات تمس المسلمين بالدرجة الأولى.

وقد افتعلت في بعض الدول الغربية مشاكل اجتماعية تظهر العداء للمسلمين كمشكلة الإرهاب، والحجاب للتلميذات المسلمات في فرنسا، ومشاكل الهجرة والمهاجرين في بلاد أوروبا كلها، وكذلك أمريكا وكندا.

الحملة الفكرية المعادية للإسلام والمسلمين:

نعم لقد افتعلت في الدول الغربية مشاكل تظهر هذا العداء للإسلام والمسلمين، وقد رافق هذا الافتعال حملة فكرية شرسة بدأت تظهر على السطح منذ عام (1979) وامتدت تتسع وتكبر حتى انطلقت شرسة أكثر فأكثر في عام (1991) ثم تُوجت بعد أحداث الحادي عشر من أيلول سبتمبر حينما فجر مبنى التجارة العالمي في نيويورك ووزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن.

وكأمثلة على هذه الحملة، فقد رأى جان كلود بارو رئيس مكتب الهجرة الدولية في فرنسا وذلك في مقابلة صحفية مع صحيفة لوكو دو باري في 25/ 9/ 1991: إن الدين الإسلامي هو الأكثر انغلاقاً وتشدداً بين الديانات، وإن استيعاب المهاجرين المسلمين في فرنسا يمر عبر التخلي عن ممارسة الإسلام.

ويقول وليم باكلي الأمريكي البارز والمحافظ في صحيفة نيوريبابلك الأمريكية: (لا يسع المرء أن يفكر أن هناك ثقافة عربية في بروكلين وجيرسي سيتي وديترويت يتغذى منها المجرمون، وينبغي علينا أن نشير بوضوح صارم إلى أن ثقافتنا لا تتوافق مع الأصوليين، ونحتاج إلى تنظيم الهجرة إلى بلادنا بالإشارة إلى هذه القضية.

ويقول النائب الفرنسي جورج فريش في مقابلة معه أجرتها صحيفة لو موند في 11/ 10/ 91: (إن على المسلمين الراغبين بالاندماج القبول بمبدأ العلمانية في فرنسا).

وكذلك صرح وزير الدولة الفرنسي كوفي يمنان: (أن على المسلمين التخلي عن تعدد الزوجات، ووضع منديل الرأس في المدارس).

ويقول فريش أيضاً: (إن هناك مشكلة مع الإسلام الذي لا يفرق بين الأمور الروحية، والأمور الزمنية).

فهذه أمثلة على الحالة الفكرية العدائية التي سادت فيما بعد التسعين في العالم الغربي، وهناك عشرات الأمثلة المشابهة حيث صدرت عشرات الأحاديث عن مسؤولين غربيين وخاصة في أمريكا إبان أحداث أيلول، وسنوردها عندما نتحدث عن تداعيات الحادي عشر من أيلول وما رافقها من حملات فكرية عدائية للإسلام.

والواقع أن هذه التنظيرات إحدى أهم هذه العوائق في وجه الحوار الإسلامي الأوربي.

أما على المستوى الواقعي الملموس فإننا نرى الموقف الغربي واضحاً في عدائه للمسلمين، خصوصاً في أزمات البوسنة والبلقان والعراق وأفغانستان وفلسطين.

ولسنا هنا بصدد تعداد المواقف الرسمية والعملية تجاه أزمات المسلمين في العالم ويكفي أن تكون هذه المواقف من أهم العقبات في طريق الحوار الإسلامي الأوربي، وإزالة هذه العقبات - حتى يتم الحوار - يحتم تغييراً جذرياً في المواقف، وهيهات أن يتم ذلك، كيف يتم الحوار ونسمع بين الحين والآخر تصريحاً هنا وبياناً هناك يدعو إلى تنظيف أوروبا من المسلمين أو يقول: إن الحرب التي شنها الأمريكان على أفغانستان هي حرب صليبية، أو أن أمريكا ستضع منهاجاً تربوياً يعلم المسلمين دينهم.....

الإسلام والأصولية

المفاهيم الخاطئة والمصطلحات المصدرة

إلى وقت ليس بالبعيد كان المسلمون المثقفون منهم والعاديون يفهمون الأصولية على أنها العودة إلى الأصول في العقيدة الإسلامية، حتى أن كثيراً منهم فهم الأصولية والسلفية على أنهما مفهوم واحد، على أن الغرب ركز هذا المصطلح تسمية لبعض الحركات الإسلامية المتصادمة مع بعض أنظمة الحكم، ولبعض الحركات الإسلامية في فلسطين ولبنان باعتبارها تقاتل الكيان الصهيوني الغاصب، وترفض الهيمنة الأمريكية لفرض الاستسلام على المنطقة، وقد راح الغرب يكيل لهذه الحركات الهجوم تلو الهجوم حتى أصبح مفهوم الأصولية من أخطر المفاهيم، وأصحابها من أخطر الناس على الديموقراطية الغربية والحرية والسلام، ولكي نكون

موضوعيين لا بد لنا من الإشارة إلى أن مفهوم الأصولية الحديث ليس مفهوماً عربياً أو إسلامياً، وليس هو بالمفهوم الجديد في الثقافة الغربية ولغاتها.

صحيح أن بعضنا فهم الأصولية كما أشرنا فهماً خاصاً، وقد يكون استخدامنا لهذا المصطلح نتيجة تصدير سابق للمفاهيم الغربية لثقافتنا العربية الإسلامية، ولكننا ولكي نكون على بينة من الأمر نعيد إلى الأذهان أن مصطلح الأصولية رافق الحملة البروتستانتية في بدء نشأتها في أوروبا ثم أمريكا، وقد أطلق المفهوم نفسه على أصحاب هذا المذهب لأنهم دعوا للعودة إلى العهد القديم (التوراة) والأخذ بحرفيته النصية باعتباره الأساس الذي يقوم عليه العهد الجديد (الإنجيل) والمسيحية البروتستانتية، كما أطلق على بعض الفئات اليهودية المتعصبة للتوراة منذ أكثر من قرنين من الزمان.

ونرى أن الغرب أراد من وراء إطلاقه هذا المفهوم على بعض الحركات الإسلامية أن يوهم المجتمعات الغربية بأن الأصولية هي ذلك الإسلام الداعي إلى العنف والإرهاب، وأنه لا يمكن التفاهم مع الإسلام والمسلمين حتى يتخلوا عن الأصولية ويركنوا للمفاهيم الغربية كالديمقراطية والحرية وما شابهها.

وإذا كانت بعض الحركات الإسلامية تتصادم مع بعض الأنظمة العربية أو الإسلامية فهذا لا يعني أن الحوار الإسلامي الغربي مستحيل، تلك الحركات التي يصفها الغرب جزافاً في تيار واحد يسمونه الأصولية تتباين أفكارها وأهدافها وظروفها وأسباب بروزها، فكثير من هذه الحركات لا سيما في لبنان وفلسطين تفتح أبواباً للحوار والديمقراطية ولا تقول: إن أتباعها هم وحدهم المسلمون وغيرهم الكافرون، على سبيل المثال الحركة الإسلامية المقاومة في فلسطين، والغرب يعرف قبل غيره أن هذه الحركات تقاوم الاحتلال وتتوجه لتحرير بلادها من الصهاينة المحتلين، ولا تثير أية نزاعات مع المسلمين الآخرين أو المسيحيين المواطنين مهما كانت أفكارهم وأهدافهم المشروعة.

على أي حال إذا كان الغرب يرى أن المعوقات أمام الحوار مع الإسلام هي تلك التيارات الإسلامية الراديكالية فإن معوقات غربية وصهيونية نستطيع أن نطلق عليها أصولية فعلاً تقف حائلاً دون إقامة الحوار الحقيقي بين الإسلام والغرب.

بماذا تتمثل الأصولية التي ينعتونها في الجانب الإسلامي بالإرهاب والعنف؟ فأي صنف من الإرهاب الذي يمارس من قبل الصهاينة ضد مسلمي ومسيحيي فلسطين، أليس هو تشنج أصولي يستند إلى أصولية التوجه التوراتي المعادي للأغيار؟

وفي أي صنف يضع الغرب ممارسات الصرب أو الروس أو الأمريكان بعد 11أيلول ضد المسلمين، أليست تلك الأصولية الأرثوذكسية الغربية والبروتستانتية التوراتية الأمريكية؟ المستندة إلى التعصب العرقي والديني؟

ومهما كانت العقبات كثيرة وكبيرة والعثرات متكررة فثمة طريق واحد للحوار بين الغرب والإسلام، وهذا الطريق يتمثل بإزالة عقدة الاستعلاء والاستكبار من العقلية الغربية تجاه الإسلام والمسلمين، فالإسلام كما أوضحنا ليس عقيدة إرهابية وهذا ما أوضحه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والمسلمون ليسوا إرهابيين كما يصورهم بعض الغربيين.

وأعتقد أن عداء الغرب للإسلام والمسلمين هو عداء للحرية الجوهرية للإنسان، وهو عداء للمساواة وعدم الاستكبار، فهل يقبل الغرب التخلي عن مصالحه الاستراتيجية في بترول الأرض العربية وثرواتها وموقعها الاستراتيجي، هل يستطيع الغرب أن يمنح التكنولوجيا المتطورة حتى يمنحه المسلمون جوهر الحضارة وروحها وفتح الحوار؟

إن الإسلام ليس خطراً قادماً زاحفاً نحو الغرب، والحقيقة المرة تقول: إن زحفاً غربياً عنصرياً راح ينمو وينمو في كل أرجاء أوروبا، وهدفه الأساسي العداء للإسلام والمسلمين، ولسنا بصدد حصر الشواهد المعاصرة وهي كثيرة جداً فالغربيون يعرفونها قبل المسلمين، فإذا كان الغرب يحمّل من يسميهم بالأصوليين المسلمين وزر القطيعة الإسلامية الأوربية والعداء، فإننا من حقنا أن نسأل الغربيين أنفسهم لماذا تتناسون الأصولية اليهودية الصهيونية وغيرها من الحركات الأصولية البروتستانتية في أمريكا

أو بريطانيا أو فرنسا أليست تتحمل وزر الأزمات الدولية الحالية والقطيعة بين المسلمين وغيرهم من الشعوب والأمم؟

بدعة اللاسامية في وجه الحوار بين الشعوب

كيف ظهر مفهوم اللاسامية؟ كيف استطاع يهود أوروبا أن يروجوه بين شعوب أوروبا، ثم كيف انطوت الخدعة على عقول الأوربيين؟

بعد أن تحالفت الحركة الصهيونية مع النازية الألمانية روجت الحركة عدة مفاهيم وعدة قضايا لم ينشغل العالم الغربي بمثلها: اللاسامية، المحرقة، أرض الميعاد، وكان يقصد باللاسامية التعصب الآري الألماني ضد الشعوب الأخرى والأعراق الأخرى، وحتى يظهر اليهود أنهم مظلومون، وأن على العالم الغربي أن يجد لهم مكاناً يقيمون عليه كياناً راحوا يروّجون لما يسمى باللاسامية، وكذلك المحرقة في أوساط العالم الغربي، ولما كان الغربيون قد اكتووا بنار الحرب العالمية الثانية فقد تقبلوا أفكار اليهود، وأصبح شعار اللاسامية يطلق هنا وهناك كلما تحدث أحد عن اليهود وكشف خداعهم وأضاليلهم.

وكم من مفكر عالمي أطلق عليه اللاسامي لأنه رفض خرافة المحرقة اليهودية وأساطير التوراة والتلمود، وعنصرية اليهود، وليس غارودي بعيداً عن أذهاننا وما فعله اليهود والأوساط الفرنسية من تضييق عليه، ومحاكمته ودفعه غرامة مالية عالية لمجرد أنه كشف حقيقة الكذبة الصهيونية المتعلقة بشأن المحرقة اليهودية التي اخترعوها ليبتزوا العالم، وخاصة ألمانيا، بل ليسخّروا الإعلام الغربي برمته في خدمة الخرافة اليهودية المضحكة.

أما مصطلح اللاسامية فإنه روّج استجابة للمد اليهودي الصهيوني في أوروبا، بل استجابة للتحالف اليهودي الصهيوني مع الصهيونية غير اليهودية التي تحكمت في بريطانيا وفرنسا وبقية العالم الغربي وأمريكا.

وكان من نتائج هذا الترويج الواسع اغتيال عدد من الباحثين السوفيات الذين تخصصوا لدراسة الظاهرة اليهودية الصهيونية، وفضحها مع ملحقاتها من ماسونية وروتارية وليونز وبوند، وإلى آخر ما هنالك من بدعٍ يهودية مشبوهة، وفي كل حادثة

اغتيال كان يرافقها حملة إعلامية واسعة في أوروبا تشير إلى أن المعروف عن الذي اغتيل أنه من دعاة اللاسامية، وأنه يكره اليهود.

ولعل الكثيرين من أبناء أوروبا وحتى من أبناء عالمنا العربي لا يفهمون معنى آخر للاسامية سوى ما يقوله الصهاينة بأنه يعني معاداة اليهود وكرههم.

وحتى يكون مفهوم اللاسامية واضحاً جلياً لا بد أن نورد النقاط التالية:

1 ـ عندما روّج اليهود مفهوم اللاسامية بين أبناء الغرب كانوا يدركون أن هؤلاء الغربيين لا يعرفون سوى الساميين اليهود، وذلك استناداً على تفسيرات التوراة التي أوردت في سفر التكوين قصة نوح وأبنائه سام وحام ويافث، وقد استطاع الخداع الصهيوني أن يحصر الساميين باليهود فحسب، وأخرجوا من السامية كل ما عداهم، وقد وصلت حدود السذاجة أو قل التغابي الغربي حداً جعلهم يتهمون العرب باللاسامية، فكل ما يفضح اليهود يعتبر دعوة لا سامية، وكل من يفضح خداعهم وجرائمهم عبر التاريخ يعتبر لا سامياً حتى لو كان سام بن نوح نفسه.

2 ـ إننا إذا سلمنا أن الشعب العربي ينتمي إلى سام بن نوح فإن لنا حجتنا وتاريخنا وآثارنا التي تدل علينا وعلى جذورنا، ولكن اليهود الذين ينتشرون الآن في العالم وينتمون إلى ستة وثمانين عرقاً لا ينتمون حتماً إلى سام، ولا إلى أحفاده، بل إنهم لا يمتون بصلة له.

وكل الوثائق والدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية تشير إلى أن يهود أوروبا برمتهم ينتمون إلى الخزر الآريين، وليس إلى العرق السامي، وكذلك فإن اليهود الفلاشا ينتمون إلى العرق الزنجي المطعم، وقس على ذلك يهود الأمريكان أو الفرنسيين أو البريطانيين أو الأوربيين الغربيين، وإذا درسنا من خلال علم الأجناس الشخصية اليهودية الغربية نراها تتميز بسحنة غربية مائة بالمائة ولا تمت بصلة إلى الشرق السامي العربي، وكذلك فإن هذا المقياس ينطبق على بقية أعراق اليهود فكل عرق له سحنته، وله عقليته وسماته الجسدية وحتى النفسية، ونعتقد أن الغربيين وخاصة الباحثين منهم يدركون هذا إدراكاً كلياً، فهم الذين خرج من بينهم العالم دور كهايم، والاجتماعيون والأنثروبولوجيون الآخرون أمثال فريزر ويوليوس ليبس.

3 ـ إن الاضطهاد العنصري الذي يمارسه الصهاينة بحق العرب وخاصة أبناء الشعب الفلسطيني يعتبر من أبشع أنواع اللاسامية التي أشاعها اليهود أنفسهم، فكيف يسكت العالم الغربي عن عنصرية الصهاينة ضد الساميين العرب الأصليين بينما يدافعون عن اليهود لمجرد سماع تصريح يفضح زيفهم وتزييفهم؟

وعلى ضوء ذلك كله فشعار اللاسامية خدعة أو لنقل بدعة انتحلها الصهاينة وصدقها الغرب أو حاول أن يقنع نفسه بأنها حقيقة وليست بدعة.

إن الفضيحة تكبر كما كبرت فضيحة أسطورة المحرقة اليهودية، ولكن يبدو أن الغرب لا يفهم معنى الفضيحة، حتى لو رآها عياناً ولمسها عن كثب، المهم أن على العالم أن يفهم وأن يعي أن التحالف اليهودي الصهيوني ـ والصهيوني غير اليهودي ـ هو تحالفُ نسيجٍ واحد في التوجه والأهداف والغايات، وما مفهوم اللاسامية سوى ذريعة صلحت إبان الحرب العالمية الثانية للجماهير الغربية، لم تعد تصلح بعدها لأن الانتباه لأساليب الصهاينة الإعلامية وغسل العقول يدفع باتجاه التحليل المنطقي وعدم القبول بالأمور قبولاً تسليمياً غبياً.

ولعلنا في هذا السياق نذكر أن مناحيم بيغن رئيس وزراء الكيان الصهيوني الأسبق عندما وقعت بين يديه نسخة من كتاب آرثر كوستلر (يهود الخزر) قال: فليقولوا إننا خزر أو أي شيء، نحن هنا موجودون بقوتنا.

وهذا يعني أن الصهاينة موجودون على أرض فلسطين بالقوة فقط، وليس لصلة ما نسجوا خرافتها وقالوا: إن لهم صلة بها من خلال التاريخ القديم الذي يصل أيام نوح وسام بن نوح.

إنهم يدركون تماماً عدم صلة بينهم وبين سام، أو بينهم وبين المنطقة العربية فهم ينبشون في العروق والأجناس وينبشون في الأرض والتوراة ليقولوا للعالم الغربي: إن لهم صلة بهذه الأرض بينما واقعهم يقول، وكذلك مؤرخوهم وآثاريوهم يقولون: إن خدعة انتسابنا لسام ولهذه الأرض سوف تنكشف إن عاجلاً أو آجلاً مهما حاولنا إثارة عواطف الغرب، ومهما حرّضنا الغربيين المخدوعين على

كل من يقف في وجه مشروعنا، وعلى كل من يحرض على اليهود؟ وعلى كل من يحاول أن يكشف حقيقة العنصرية اليهودية وجرائمها؟.

وتبقى أمامنا عشرات الأسئلة المواجهة للغرب المخدوع بهذه البدعة، فلا يكفي أن نوضح الحقائق ونضع الأمور في مسارها الصحيح، فلعل طرح الأسئلة على العقل الغربي يضعه في الزاوية ويعترف بالخطأ الفادح الذي ارتكبه وهو يمارس لعبة الخداع والتمويه والتنكر.

1 ـ فإذا كان مصطلح اللاسامية قد اتسع انتشاره في أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى وبعد أن لفق اليهود قصة القتل الجماعي لليهود على أيدي هتلر والحكم النازي، فما الذي يقوله الغرب عن الممارسات الصهيونية في فلسطين؟ عن قتل الأطفال الرضع وإبادة البيوت والأشجار وحصار التجويع؟ أليس ما يفعله الصهاينة يفوق ما فعله النازيون في أوربا؟ فلماذا لا يقوم الغرب محتجاً على العنصرية الدموية الصهيونية؟ ولماذا لا يخترعون مصطلحاً يشابه اللاسامية على الأقل.

2 ـ إذا كان أي تصريح يكشف حقيقة العنصرية الصهيونية قد أقام الدنيا ولم يقعدها في فرنسا أو أمريكا، فما قول الأوربيين بما صرح به الحاخام الأكبر عوبيديا يوسف بين الحين والآخر؟ ألم يسمع الأوروبيون دعوة هذا الحاخام إلى قتل العرب جميعاً؟ ألم يسمعوا وصفه للعرب بأنهم أفاعٍ يجب إبادتهم؟ ألم يسمعوا قوله: بأن الله ندم على خلق العرب؟ ماذا يسمون هذه التصريحات من رجل يحكم الشارع اليهودي أكثر مما يحكمه شارون وجنرالات الحرب في الكيان الصهيوني؟

3 ـ ألا يقارن الغربيون صياحهم واحتجاجهم على اللاسامية بسكوتهم ورضاهم عما يحدث من تطبيق لأبشع أنواع العنصرية الصهيونية في فلسطين والأراضي المحتلة؟ إن ذلك ينم عن تخلف حضاري كبير، بل إنه ينم عن عنصرية خفيّة يعيشها هذا الغرب، لا يريد أن يعلن عنها صراحة، لكنه بسلوكه هذا يفصح عنها دون أن يريد أو يشعر.

4 ـ إذا كانت الأنظمة الغربية تخاف الصهيونية وترتعب منها فعليها أن تحتفظ بخوفها في نفسها ولا تفصح عنه من خلال هجوم نفسي فكري سياسي على الآخرين

الذين يعادون الصهيونية ولا يخافونها أو يرتعبون منها، ولعل العجب العجاب أن ينسى الفرنسيون الذين احتجوا على ما فعله الصهاينة برئيس جمهورية فرنسا جاك شيراك عندما زار القدس قبل سنوات، فلو جرى ما جرى له مع أي رئيس يحس بكرامته لقامت حرب لا يدري مصيرها إلا الله، ولا يغيب عن ذاكرتنا أن السبب المباشر الذي تذرعت به فرنسا لاحتلال الجزائر عام 1830 هو إهانة القنصل الفرنسي من قبل (الداي) أي: سلطان الجزائر آنذاك، ولعلنا تعلمنا من كتب التاريخ أن سلطان الجزائر لم يفعل شيئاً سوى أنه طالب بالأموال المستحقة على فرنسا فأشاح بمذبته على وجه القنصل واعتبرتها فرنسا جريمة تستحق الجزائر عليها عقوبة احتلال دام مئة وثلاثين عاماً، فماذا تقول فرنسا المحتجة على اللاسامية عندما أهين رئيسها شيراك حين زار القدس قبل سنوات؟

أما أمريكا التي تعتبر نفسها والكيان الصهيوني نسيجاً واحداً فإن احتجاجها على ما يُسمّى اللاسامية يصبح مهزلة فاقعة لأن هذه الولايات المتحدة الأمريكية تمارس أبشع أنواع العنصرية مع فقراء الزنوج خاصة هؤلاء الذين رأوا في الإسلام ملاذاً روحياً وسلوكياً لهم، فهي التي اغتالت مالكوم إكس، وهي التي تضيق الخناق على لويس فرقان ولم يسلم من عنصريتها الراعية لحقوق الإنسان مارتن لوثر كينغ وكذلك غيرهم كثيرون.

وعلى الوجه الآخر للصورة تلك التصريحات العنصرية ضد أطفال انتفاضة الأقصى وأطفال العراق وغيرهم وغيرهم.

اللاسامية مفهوم خادع، بدعة اخترعها اليهود الصهاينة، وما أكثر البدع التي يخترعها قتلة الأنبياء، وما أكثر الشواهد التاريخية على عنصريتهم ودمويتهم.

يقول تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 88].

ويقول المسيح ـ عليه السلام ـ: (الويل لكم أيها الكتبة الفريسيون المراؤون فإنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون ضرائح الصديقين، وتقولون لو عشنا في أيام آبائنا

لما شاركناهم في دم الأنبياء، فأنتم تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء قتلة الأنبياء فاملؤوا أنتم مكيال آبائكم) إنجيل متى.

هل التصريحات الجديدة بالحرب الصليبية تسمح بالحوار بين الشعوب؟

في أوج الرد الإعلامي والنفسي للإدارة الأمريكية على ما حدث في نيويورك وواشنطن، خرج الرئيس بوش بقوله: إن هذه الحرب ستكون مختلفة عن كل حرب، إنها حرب صليبية على الإرهاب.

وحتى لا يتفاقم الرد الإسلامي العالمي، وتزداد وتيرة العداء للولايات المتحدة قال وزير خارجية أمريكا رداً على سؤال حول ما صرح به بوش: إن ما قاله الرئيس بوش ليس سوى زلة لسان.

واستكمالاً لامتصاص رد الفعل قام بوش بزيارة مسجد تعرض لهجوم إرهابي أمريكي في واشنطن، وبدأ يخرج كل يوم بتصريحات يمجد فيها الدين الإسلامي، حتى بدا وكأنه من دعاة الإسلام الذين يريدون إفهام الناس ما هو تسامح الإسلام وإنسانيته.

لقد زل لسان بوش وسُجل ما نطق به، ولم يعد هناك ما يمحو ما قاله وسُجل عليه، إنها حرب صليبية على الإرهاب.

إن مصطلح حرب صليبية يعني تحديداً حملةً يشترك فيها كافة أبناء المسيحية الغربية ضد الإرهاب، فإذا كان الطرف المسيحي الغربي برمته هو الذي يشن هذه الحرب الصليبية فإن ذلك يعني أن هذه الحرب هي حرب دينية، وبما أن الطرف المتهم بالإرهاب هو طرف إسلامي فإن ذلك يعني أن هذه الحرب الصليبية هي ضد المسلمين باعتبارهم الطرف المقابل.

ما دواعي الحرب الصليبية الجديدة وأسبابها؟

هل هي ترجمة عملية لما روّج بعد انهيار الشيوعية من أن الإسلام هو العدو القادم للغرب؟ أم أنها استمرار لإرث غربي قديم يتجدد كلما أفلست السياسات الغربية في كبت المسلمين وقهرهم، أو تدجينهم وغسل أدمغتهم ونفوسهم؟ أم هي حتمية الصراع بين الحضارات؟

إن الحروب الصليبية التي شهدتها المنطقة العربية الإسلامية وحتى الحرب الصليبية التي شنها الغرب بعد الحرب العالمية الأولى وقسّم فيها الأرض العربية، واستحوذ على خيراتها، وزرع في أرضها الكيان الصهيوني البغيض، كانت حروباً استعمارية من أهم أهدافها استغلال ثروات المنطقة أولاً، وإضعاف القوة العربية الإسلامية وتفتيتها، وزرع الإقليمية في العقل العربي حتى تبقى هذه المنطقة منطقة استغلال لا أكثر ولا أقل.

ولكننا حين ننظر إلى واقع الأرض العربية نرى أن ثرواتها ولا سيما البترول هي بيد الغربيين بدءاً من الاستخراج وحتى التصنيع، ومن المعروف أن كافة أنواع التطور التقني والصناعي الغربي تقوم أساساً على ما تمتصه من ثروات الأرض العربية.

أما القوة العربية فهي شبه ميتة إن لم نقل ميتة فعلاً، فالإقليمية أصبحت شعاراً وواقعاً، ومجرد التفكير في إحياء القوة العربية الموحدة أصبح سخرية أو مزحة يمزحها بعض السذج من أبناء هذا الوطن.

والاستعمار الغربي ثبت أقدامه في كثير من مناطق هذه الأرض من خلال قواعد عسكرية ومستودعات سلاح وذخيرة، أو من خلال ربط النظام العربي السياسي بتوجهات الغرب الفكرية والسياسية.

إذن ما هي الدواعي للحرب الصليبية الجديدة التي أعلن عنها الرئيس الأمريكي بوش؟

طالما أن ثروات المنطقة بيد أمريكا والغرب، وطالما أن الإقليمية كُرست وأبعدت الوحدة الحقيقية، وطالما أن الأمريكان يربطون معظم الأنظمة العربية بالغرب ربطاً وثيقاً.

على من تشن الحرب الصليبية الجديدة؟ وما هو المستهدف منها؟ هل أفغانستان هي المستهدفة؟ أم أن المستهدف أسامة بن لادن والحركات الأصولية الإسلامية؟ أم أن المستهدف هو تنامي الصحوة الإسلامية والفكر الإسلامي الداعي إلى محاربة الهيمنة والعولمة والتسيّب الأخلاقي العالمي؟

فإذا نظرنا إلى الواقع العالمي بعد انهيار الشيوعية تبرز لنا حركة أمريكية غربية شمولية لتغيير العالم الإنساني من حيث اقتصاده وفكره وعلاقاته الاجتماعية، وبهذا التوجه خرجت في الغرب مقولات ومصطلحات كالعولمة والثقافة العالمية المشتركة، ولا مكان للضعيف في هذا الكون. . . وما إلى ذلك من شعارات كبرى، وراح الغرب يطبق هذه المقولات، ولا شك أن الطبيعي في مسار البشرية أن تتناقض الفلسفات والأفكار والمجتمعات وتتصادم، فالعولمة تعني لدى الكثيرين سحق طرف إنساني كبير، وسحق ثقافات برمتها، بل سحق عقائد وأديان ومعتقدات.

ولا يمكن للغرب أن يحرر أفكاره العولمية دون أن يواجه من يرفضها.

ولا ريب أن الإسلام وبما فيه من دعوة إلى هَوية إسلامية مستقلة لها سماتها وخصائصها يعني للغرب أن طريق العولمة في الجانب الفكري والعقيدي هو طريق مسدود، وهذا يجره إلى الاصطدام معه، وقد يتراوح بين فرض الأفكار أو فرض السيطرة بالقوة.

وفي هذا السياق يرى الغرب أن الذين يتصدون لمشروعه العولمي ليسوا سوى أصوليين إرهابيين، والواقع أن الغرب نفسه يدرك أن الواقع الإسلامي على ما فيه من سلبيات يفرز جهتين متناقضتين، جهة الإسلام الرسمي الذي يريد الإسلام شكليات ليس من ورائها حفاظ على هوية، وجهة الإسلام الشعبي الذي يرى الإسلام الملاذ الأول والأخير للحفاظ على الهوية في مواجهة العولمة والتغريب، ومع تنامي الطرف الثاني أصبح الغرب يرى نفسه وقد فُضحت أهداف عولمته، وغايات سيطرته، فهو لا يريد البترول لأن البترول العربي في يده، ولا يريد تفتيت الأمة لأنها مفتتة ممزقة، إنما الذي يريده هو القضاء على الصوت الإسلامي الذي يرفض التدجين، ويرفض الشخصية التابعة الذائبة في دائرة التوجه الغربي فكراً واجتماعاً واقتصاداً.

إذن فالحرب الصليبية الجديدة هي حرب على الصحوة الإسلامية، حرب على هذه الدفقة القوية من الدعوة إلى إحياء الشخصية بعد أن كادوا يميتونها أو يضعفونها، أو يشلون قدرتها على التحرك.

وحينما تحشد الولايات المتحدة كل وسائل إعلامها من جهة، وكل إمكاناتها العسكرية من جهة أخرى، فإنها بذلك تقول: على العالم أن يقبل بسيادة الفكر الأنجلو ساكسوني وما يطرحه، وعلى العالم أن ينساق تحت مظلة الفكر الذي تنتجه القوة الأمريكية الغربية.

وإذا قارنا بين هذه الإمكانات الأمريكية التي تحشد، وبين الهدف المعلن، نجد التناقض صارخاً مضحكاً، فأفغانستان من أضعف دول العالم اقتصاداً وإمكانات، وشعبها يعيش تحت خط الفقر منذ زمن بعيد، وليس لديها أية بنية تحتية تحسد عليها، فهل حقاً يحتاج الأمريكان لكل هذه الأساطيل ولكل هذه الوسائل الضخمة من الإعلام والحشد والاجتماعات واللقاءات مع زعماء العالم حتى يقضوا على كبش المحرقة أسامة بن لادن ودولة أفغانستان الضعيفة؟

الواقع أن ردة الفعل الأمريكية على ما حدث في نيويورك وواشنطن ليس مجرد رد اعتبار، أو مجرد انتقام، إنما هي نتيجة مخزون نفسي وفكري بدأ منذ أكثر من عقدين من الزمن، وجاء ما حدث في أمريكا ليرفع الستار بشكل كامل عن المخططات الأمريكية الداعية للحرب على الإسلام باعتباره المعوق العقيدي والفكري الأول لسبيل العولمة، وأمركة العالم.

لماذا انسحبت أمريكا من مؤتمر دوربان؟ لماذا ضربت عرض الحائط معاهدة ستارت مع الروس، وأصرت على مشروعها المسمى الدرع الصاروخي؟ لماذا رفضت الانصياع لمؤتمر البيئة الذي حملها مسؤولية التلوث البيئي للكرة الأرضية؟ لماذا تصر على حرب المعلومات مع الاتحاد الأوروبي والصين واليابان وروسيا؟

إن الفلسفة الأمريكية تقوم اليوم على عقدة العظمة والأنا الأوحد في العالم، وهذه الفلسفة لا تخلو من استناد عنصري تراكم على مدى خمسة قرون منذ أن رأى الرجل الأبيض نفسه أرقى من بقية البشر، فأباد الهنود الحمر، واستعبد الملايين من الأفارقة، وأذل كل الشعوب التي رفضت الهيمنة، وحاربت من أجل الهوية والاستقلال ورفض التبعية.

وإذا كان منطق الفلسفة الأمريكية في الإطار العالمي يقوم على فكرة التسيّد، فكيف يمكن أن يكون في إطار المواجهة مع الإسلام؟ إن الولايات المتحدة تريد أن يكون الإسلام في دائرة التعايش المجتمعي في ظل منظومة الفلسفة الأمريكية، أو منظومة العظمة الأمريكية المتسيّدة، ولا تريد هذه الفلسفة إسلاماً يرفض التبعية، ويحقق الشخصية حضوراً يماثل الحضور الأمريكي نفسه أو أكثر، والذي ترفضه أمريكا هو أن يكون هذا الإسلام نموذجاً إسلامياً يُحتذى في كافة شعوب العالم، لأنه بذلك يعرض الفلسفة الأمريكية للاهتزاز أو للتداعي، ومن هنا فإن ما طرحه بوش من أن هذه الحرب هي حرب صليبية ليس إلا تجسيداً لهذه الفلسفة الأمريكية التي تأبى أن ترى عقيدة سامية تفرض نفسها في الفكر العالمي، ووجدانه وعلاقاته الإنسانية.

وقد يرى بعضنا أن أمريكا ليست معنية بمحاربة الإسلام، وليس الرئيس بوش أو غيره من زعماء العالم الغربي معنياً بمحاربة الإسلام، وما صرح به أو قام به من تحركات في أمريكا يدلّل على ذلك، فهو لا يتوانى في كل يوم عن التمجيد بالإسلام، وموقف المسلمين الموجودين في الولايات المتحدة، ويحرص على عدم الخلط بين الإسلام والإرهاب إلخ. . . .

فإذا كانت الولايات المتحدة ليست معنية بمحاربة الإسلام، فهل تقتنع بأن القدس مدينة إسلامية؟ وأن المسجد الأقصى يخص المسلمين أكثر من أي طرف آخر؟ هل تقتنع بحق المشردين الفلسطينيين بالعودة إلى بلادهم التي شردوا منها؟ هل توافق أمريكا أن تقوم دولة عربية إسلامية واحدة تضم هذه الأقطار والدويلات التي صنعها الحلفاء بعد الحرب الكونية الأولى؟ هل تسكت أمريكا لو قامت الدول العربية المنتجة للبترول بسحب أموالها من البنوك الأمريكية والغربية عموماً؟ ما موقف أمريكا من المسلمين لو امتلكوا أسلحة دمار شامل، أو امتلكوا تقنيات فنية عالية في مجال التصنيع والاكتفاء الذاتي اقتصادياً وتجارياً؟ هل ترى أمريكا للعرب والمسلمين ما تراه للكيان الصهيوني؟

إن الفلسفة الأمريكية جسدت نفسها على أرض الواقع في العديد من مناطق العالم، فكان موقفها المعروف في البوسنة والهرسك، وموقفها المعروف من قضية فلسطين، وكذلك مواقفها في المحافل الدولية التي تمس الإسلام والمسلمين.

فإعلان بوش عن حربه الصليبية يعني أن الإسلام راح يشكل تهديداً للفلسفة الأنجلو ساكسونية القائمة أساساً على فكرة التسيّد والقوة المطلقة دون اعتراض.

وليس الهدف المعلن عنه من قبل أمريكا سوى غطاء لحملة صليبية على الإسلام، وهذا الغطاء ليس سميكاً حتى تخفى الأهداف والغايات الأمريكية وراءه.

عندما وصل الجنرال غورو إلى قبر صلاح الدين أيام الاحتلال الفرنسي لسوريا قال قولته المشهورة: ها نحن عدنا يا صلاح الدين، والآن انتهت الحروب الصليبية.

والواقع أن بوش بقوله: إن حرب أمريكا حرب صليبية، يعيد للذاكرة ما قاله غورو، وكذلك الجنرال اللبني، ولكن بوش لن يقول: ها نحن عدنا يا صلاح الدين، ولكنه سيحاول هذه المرة أن ينسف كل أثر للرموز الإسلامية التي أحيت الأمة، أو خلصتها من براثن الصليبيين القدامى، وجاهدت بكل ما تملك حتى يبقى الإسلام، وتبقى ديار الإسلام طاهرة مطهرة من رجس الغزاة، وسيحاول أن يقول للمسلمين: احذفوا كل آيات القرآن التي تحث على الجهاد، أو تلك التي تتحدث عن بني إسرائيل واليهود بسوء.

ذلك هو منطق الفلسفة الأمريكية، وذلك هو الكامن وراء كلمة بوش إنها حرب صليبية، ولا ندري إلى أي مدى تنطلي الخدعة الأمريكية على عقول بعض العرب والمسلمين.

كيف نحدد مفهوم الإرهاب حتى نفتح آفاق الحوار بين الشعوب

أصبح مصطلح الإرهاب من أكثر المصطلحات تردداً على الالسنة، وما من دولة أو شعب إلا ولهما موقف معاد للإرهاب.

لكن الموقف الإنساني من الإرهاب هو موقف يستند إلى فهم نظري يُتفق عليه من حيث الفكرة، ويُختلف بشأنه من حيث المقاييس والمعايير المختلفة بين شعب وشعب، ودولة ودولة، وحتى بين فرد وآخر.

فما يكون إرهاباً لدى أمة من الأمم يكون مقاومة ضد احتلال أو ظلم عند أمة أخرى، وهذا هو الاختلاف في المعايير والمقاييس.

أما إذا كان مصطلح إرهاب من وجهة نظرية يعني العدوان الإجرامي بقصد القتل، أو التخريب، أو ترويع المدنيين دون أي مبررات فإن ذلك مجمع عليه، ومتفق بشأنه في المعايير الإنسانية جميعها.

وما نشهده اليوم من تحليل لمعنى الإرهاب يدفعنا نحو تعريف المصطلح وتاريخ بروزه، وجذوره التاريخية العقدية والفكرية، ومن ثم انعكاساته على الواقع من حيث الآثار والنتائج خاصة أن الأمة العربية أول الأمم التي اكتوت بناره، وما تزال آثاره تتفاقم كل يوم على أمتنا وأراضينا العربية.

فالإرهاب بداية استخدام وسائل متعددة لترويع الآخرين إن كان ذلك على المستوى النفسي أو الفكري، أو كان على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، وتكون نتيجته سلب الآخرين حريتهم في العيش بأمان في أرضهم وبيوتهم.

وبهذا المعنى فإن الإرهاب نقيض الحرية بمفهومها الشمولي العام، وبمفهومها الخاص الذي يعني إبعاد الأمان والحياة عن الفرد أو الشعب أو حتى الأمة.

الإرهاب كعقيدة

بعيداً عما يسمى العقيدة العسكرية أو العقيدة السياسية فإن الإرهاب ليس وليد أفكار وفلسفات حديثة فحسب، إنما هو متجذر في بطن العقائد بحيث يصبح هذا الإرهاب نصاً مقدساً، أو أمراً ميتافيزيقياً يحل في النفس ليصبح جزءاً من نسيجها الديني والسلوكي والأخلاقي.

وبعيداً عن الهوى القومي أو الشخصي نرى نصوص التوراة وكذلك نصوص التلمود تخضع بكل الأشكال إلى هذا المقياس، أي: مقياس النص المقدس الذي يحترمه أتباع هذين الكتابين كاحترامهم للتعاليم العقدية الأخرى، ومن هذا القبيل عشرات النصوص الواردة في أسفار التوراة جميعها، وحتى نفرق تماماً بين النصوص الداعية للقتل مباشرة، والنصوص التي تدعو للإرهاب، علينا أن نفرق بين نوعين من النصوص، نصوص تنسب إلى الغيب وهي نافذة في الفكر والموقف والسلوك، ونصوص تصف الواقع وتنسب إلى أشخاص على الآخرين تمثّلها وتطبيقُها ولكنها لا تصل أحياناً مرتبة التقديس.

تقول التوراة: (لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم) يشوع 3: 23.

وتقول: (ويكون عند أخذكم المدينة أنكم تضرمون المدينة بالنار، كقول الرب تفعلون) يشوع 8: 8.

ويعلم الرب يشوع طرق الإرهاب وأساليبه وفنونه فيقول له: مدّ المزراق الذي بيدك نحو عاي لأني بيدك أدفعها.

ويأمر الرب يشوع أن يجعل بعض المدن ملجأ للمجرمين الإرهابيين وقطاع الطرق فيقول: وكلم الرب يشوعاً قائلاً: كلم بني إسرائيل قائلاً: (اجعلوا لأنفسكم مدن الملجأ كما كلّمتكم على يد موسى لكي يهرب إليها القاتل فيهرب إلى واحدة من هذه المدن، ويقف في مدخل باب المدينة، ويتكلم بدعواه في آذان شيوخ تلك المدينة، فيضمونه إليهم إلى المدينة، ويعطونه مكاناً فيسكن معهم، وإذا تبعه ولي الدم فلا يسلموا القاتل بيده) يشوع 5: 20.

وجميع الباحثين يعرفون كيف تصف التوراة الإله بالمحارب وبرب الجنود، وهذه الصفات تدفع التوراتيين لتصور هذا الإله كحاكم عسكري يجب أن تنفذ أوامره.

والواقع أننا نستطيع أن نرى أصنافاً متعددة للإرهاب في النصوص التوراتية، منها إرهاب داخلي بمعنى أنه يقع بين أتباع التوراة، ومنها إرهاب خارجي، ومنها ما له طرق وأساليب إرهابية متعددة كالقتل بطريقة الغدر، وهذا ما نجده في سفر صموئيل الثاني: (تقول التوراة: ثم دعا داود واحداً من الغلمان وقال: تقدم أوقع به، فضربه طعناً، فمات).

وتقول التوراة: (ولما رحل أبنير إلى حبرون مال به يؤاب إلى وسط الباب ليكلمه سراً، وضربه هناك في بطنه فمات) صموئيل 26: 32.

وتورد التوراة أن امرأة من بني إسرائيل قتلت قائداً يهودياً، فقطعت رأسه وألقته أمام الجنود (فقالت المرأة ليؤاب: هو ذا رأسه يلقى إليك عن السور، فأتت المرأة بحكمتها، فقطعوا رأس شبع بن بكري وألقوه إلى يؤاب) صموئيل 21: 22.

ومثل هذه النصوص كثيرة جداً في التوراة، وكذلك في التلمود الذي سن قوانين يعجز عنها الإحصاء، وهي في مجموعها قوانين إرهابية يقدسها أتباعها كتقديسهم للنص الإلهي الذي يزعمون أنه مكتوب في التوراة.

جاء في التلمود: مباح قتل غير اليهودي، القتل أمر واجب عند التمكن من إجرائه.

وجاء أيضاً: إن من يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يكافأ بالخلود بالفردوس، والجلوس هناك في السراي الرابعة.

أما من حيث الفكر فإن الإرهاب المستند إلى عقيدة إرهابية ينتقل بشكل طبيعي لامتداداته في الفكر، وهذا ما نجده بشكل مرعب في النظرية الصهيونية، فجابوتنسكي الأب الروحي لمنظمة الأرغون الإرهابية يقول: إن التوراة والسيف أُنزلا من السماء معاً.

وقد أورد بيغن في كتابه المسمى الحرية عشرات الأساليب الإرهابية التي استخدمها هو وعصابته إبان التسرب إلى فلسطين قبل النكبة عام (48) وما بعدها.

ومنها مثلاً ما ذكره عن تحمله مسؤولية تفجير السفينة المسمّاة باتريا والتي كانت تقبع في ميناء حيفاء وعليها (320) صهيونياً مهاجراً حيث قتلوا جميعاً على أيدي عصابات الأرغون وعصابة إتسل الصهيونيين، ومنها أيضاً الكثير من التنظيرات الإرهابية التي كانت توجه لأفراد العصابات الصهيونية الإرهابية كبقر النساء الحوامل، وقطع رؤوس الأطفال، وجمع كبار السن بالعشرات في أحد المنازل وحرقهم جميعاً أحياء، وهذا ما نُفّذ فعلاً بعد شهر النكبة عام (1948) وعلى مدى عدة شهور.

الإرهاب والقوانين الدولية

ظل مصطلح الإرهاب في القوانين الدولية يخضع للإطار النظري بشكل عام، وقد برزت اختلافات كثيرة في تفسيره بين الدول وذلك بسبب أبعاده الصراعية السياسية، ولكن القانون الدولي ينص على عدم ترويع المدنيين وظلمهم ودفعهم خارج بلادهم، وعدم استخدام وسيلة القتل ضدهم أو التعذيب.

جاء في المادة الخامسة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: لا يجوز تعريض أي إنسان للتعذيب ولا لضروب من المعاملة أو العقوبة القاسية المهينة المنافية للكرامة الإنسانية.

وأهم ما جاء في هذا الإعلان:

لا يجوز تفسير أي نص وارد في هذا الإعلان تفسيراً يبيح لأي دولة أو جماعة أو فرد الاشتغال بأي نشاط أو القيام بأي عمل يقصد به القضاء على أي حق من الحقوق أو أية حرية من الحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان).

ولكن مواد الأمم المتحدة ظلت نظريةً خاصة فيما يتعلق بالشعوب التي استُلبت حرياتها وأوطانها، وقد جرى الالتفاف عليها ومن ثم تغييب حقوقها المنصوص عليها في الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، ومن خلال مسيرة الشعوب بعد الحرب العالمية الثانية نرى أن مصطلح الإرهاب راح يتنامى وترتفع وتيرة الحديث عنه، ولو عدنا إلى منتصف القرن السابق وجدنا أن السلوك الصهيوني في فلسطين وخارجها هو الذي صدَّر مفهوم الإرهاب وأشاعه، وقد كان قبلاً غامض الملامح قد يطرح في مناسبات متباعدة وفي مؤتمرات غير دولية.

وحتى عندما نتفحص تاريخ الحركات والمنظمات الإرهابية في العالم نرى أن جذر هذا المفهوم كان وما يزال من صنع صهيوني واضح.

فقبل أن تعرف أوروبا وأمريكا المنظمات الإرهابية العنصرية كمنظمات ميتسغن وكوكس كلان، وحزب الرب، والمنظمات التي ظهرت في فرنسا وهي يمينية النزعة، وكذلك المنظمات التي ظهرت في بريطانيا ويوغسلافيا وإيطاليا وأمريكا اللاتينية وهي كثيرة، ظهرت قبل منتصف القرن الماضي منظمات إرهابية صهيونية كان من أشهرها منظمة الهاغاناة، ومنظمة الأرغون، ومنظمة إتسل ومنظمات أخرى استخدمت الإرهاب في كافة وجوهه، من الإرهاب ضد اليهود أنفسهم إلى الإرهاب ضد العرب إلى الإرهاب الدولي.

فمنظمة الهاغاناة وقد تأسست عام (1921) ركز أعضاؤها على أعمال النسف والتخريب والهجوم.

ومنظمة الأرغون تأسست عام (1931) على جماعة مسلحة من حركة بيتار الإرهابية وانشقت عنها جماعة شتيرن، وأشهر ما قامت به من أعمال إرهابية:

على المستوى العربي: تنفيذ مجزرة دير ياسين في 5/ 4/ 1948.

على المستوى الدولي: اغتيال الوسيط الدولي للأمم المتحدة الكونت برانادوت.

على مستوى الإرهاب ضد اليهود: نسف سفينة باتريا وعلى ظهرها (320) مهاجراً يهودياً وقتلهم جميعاً في حيفا، وقد برر ابن غورين إرهابه بقوله: إن الإمبراطورية الإسرائيلية سوف تمتد من الفرات إلى النيل/ و (إسرائيل) لا يمكن أن تعيش إلا بالقوة والسلاح.

أما غولدا مائير فقالت: لقد حبذت دوماً أن نجلي العرب عن هذه البلاد بكل ضمير مرتاح، ولكن كيف السبيل إلى ذلك.. لا بد من الحرب لأنه بالحرب وحدها يمكن تغيير الحدود.

ويرى زعماء الصهيونية أن العنف هو جزء من العلاقات البشرية، وبرأيهم يوجد إرهاب عادل، وإرهاب غير عادل، فاحتلال البلاد هو أحد الوصايا الكبيرة المرتبطة بأرض (إسرائيل) وقد جاء على لسان أليعاذر ليفنه: إن تحقيق الصهيونية قد صاحبته مظاهر إرهاب كانت أحياناً بحكم الضرورة، وأحياناً لم تكن صحيفة يديعوت أحرونوت 8/ 9/ 1972.

وعلى الرغم من التهرب من مسؤولية الإرهاب لدى بعض الصهاينة فإن بعضهم يتباهى بقيامه بأعمال إرهابية ضد العرب، وعندما سئل مناحيم بيغن هل قام فعلاً بجرائم ضد النساء الحوامل في دير ياسين؟ أجاب: وهل فعلت ذلك إلا من أجل شعبي) حركة هتحيا.

ومنذ تأسيس هذه المنظمات الإرهابية في بداية عشرينات القرن الماضي وحتى قيام الكيان الصهيوني عام (1948) قامت عناصرها بمئات الأعمال الإرهابية داخل فلسطين وخارجها، وقد امتدت أيديها إلى افتعال جرائم وتفجيرات في كثير من بلدان العالم.

وحين نحصر أمامنا أسماء المنظمات الإرهابية في العالم لا نجد منظمة دون أن يكون لها علاقة ما بأجهزة استخبارات صهيونية وعلى رأسها الموساد والمنظمات الصهيونية العالمية.

ومن هذه المنظمات الإرهابية منظمة RSS الهندوسية، ولها ارتباطات وثيقة بالموساد.

منظمة النازية الجديدة (حالقو الرؤوس) منظمة كوكلوكس كلان الأمريكية، ولها فروع في ألمانيا، الحزب النازي الجديد في إيطاليا، عصابة (كامورا) ومركزها إيطاليا.

حزب اليمين المتطرف (فلامزبلوك) ومقره بلجيكا، الجبهة الوطنية الفرنسية بزعامة ماري لوبان - علاوة على وجود ثلاثين منظمة عنصرية إرهابية متواجدة في الولايات المتحدة الأمريكية، ومنها منظمة قامت بتفجير أوكلاهوما الذي أعدم منفذه الأمريكي الهوية والمنشأ في بداية شهر أيلول (2001).

ومن بالجدير ذكره أن هذه التنظيمات والحركات الإرهابية تعيش في بلادها التي لم تتعرض لاحتلال، إنما تقوم أفكارها على مبادئ عنصرية ومعاداة المهاجرين وأصحاب الأديان الأخرى.

وفي جميع الأحوال فإن ما أوردناه في البداية من تعديل لمصطلح الإرهاب وغاياته وأهدافه ينطبق على العديد من المنظمات والحركات في العالم، ولعل تسويق الإرهاب كمصطلح وسلوك في منطقتنا العربية لم يكنْ سوى نتيجة من نتائج الإعلام الصهيوني العالمي، فليس في منطقتنا منظمات تقوم على أسس عنصرية دينية أو قومية شوفونية متعصبة، وليس في منطقتنا العربية منظمات تقوم أساساً على نفي الآخر وتدميره وظلمه، فالإرهاب لم تشهده منطقتنا إلا مع حلول الحركة الصهيونية واحتلال أرض فلسطين وبعض أجزاء أخرى من أرضنا العربية، وممارسة كافة أشكال العنف والقهر، وقتل جميع أنواع الحريات الإنسانية التي دعا العالم إلى صيانتها والحفاظ عليها.

لماذا ندعو لمؤتمر دولي لمكافحة الإرهاب؟

من الواضح أن المعايير لتحديد مصطلح الإرهاب ما تزال تحكمها الأهواء السياسية والمصالح الذاتية الخاصة، فإذا كان لا بد من الوصول إلى قاسم مشترك بين الأمم والشعوب حول مصطلح الإرهاب فمن المفترض تحديد من المستفيد من وراء هذه الظاهرة، من المستفيد على المستوى الفكري أولاً، وعلى المستوى الاقتصادي

والاجتماعي ثانياً، وعلى المستوى الإنساني ثالثاً، ثم على كافة المستويات، وقبل أي شيء فإن العقل البشري مطالب بمراجعة التنظيرات الفكرية للإرهاب.

جاء في البروتوكول الأول من بروتوكولات حكماء صهيون (فخير النتائج في حكم العالم ما ينتزع بالعنف والإرهاب) (يجب أن يكون شعارنا كل وسائل العنف والخديعة) (إن العنف الحقود وحده هو العامل الرئيسي في قوة العدالة).

وجاء في البروتوكول السابع: من أجل أن نظهر استعبادنا لجميع الحكومات الأممية سوف نبيّن قوتنا لواحدة منها متوسلين بجرائم العنف، وذلك هو ما يقال له حكم الإرهاب).

وجاء في البروتوكول التاسع: إذا اكتُشفت خططنا قبل الأوان وتلافياً لهذا نستطيع أن نعتمد على القذف في ميدان العمل بقوة رهيبة سوف تُملأ أيضاً قلوب أشجع الرجال هولاً ورعباً، وعندئذ ستقام في المدن الخطوط الحديدية المختصة بالعواصم والطرقات الممتدة تحت الأرض من هذه الأنفاق سنفجر وننسف كل مدن العالم ومعها أنظمتها وسجلاتها معاً).

فهل نظر العرب لمثل هذا الإرهاب العالمي المدمر؟ إن عقد مؤتمر دولي لمكافحة الإرهاب سوف يدمر كل المشاريع الإرهابية التي تقوم على العنصرية الصهيونية، ولكن إذا كان العالم لم يتفق إلى الآن على مؤتمر دولي يكافح الإرهاب فكيف يتحقق اجتماع العالم على تحديد ما هو الإرهاب ومن ثم مكافحته؟؟

هجوم أمريكي غربي على الإسلام بدل الحوار

مهما حاولنا أن نغمض أعيننا أو نغلق آذاننا أو نشيح بأوجهنا عن الحقيقة لن نستطيع أن نتجاهل ناقوس الخطر الذي راح يضرب بقوة منذراً أمتنا بأن الآتي سيكون صعباً وقاسياً ومعقداً.

في كل وسائلنا الإعلامية قلما لا نجد مقالاً أو مقابلة أو بحثاً يتناول هذا اللغط الذي صار على كل لسان، هل أغلق الباب وأوصد أمام أي حوار للحضارات والثقافات؟ هل بدأ الغرب فعلاً بشن حربه الشمولية على الشخصية العربية الإسلامية؟ هل بدأ العد التنازلي لتصبح المواجهة الحضارية والثقافية حقيقة نلمسها

ونعيش صراعها؟ لماذا لا يعير الغرب آذانه لما يطرحه العرب والمسلمون حول الحوار الحضاري الديني الثقافي؟

قد يكون إحساسنا سابقاً على ما يجري الآن من تحرك على المستوى العربي أو الإسلامي أو على مستوى المنتديات الفكرية والثقافية هنا وهناك.

نعم لأن إحساسنا لا ينبع من فراغ نحن لن نكون أنبياء العصر حتى نتنبأ بالآتي، ولكن دراستنا المستمرة ومراقبتنا لهذا العالم مراقبة مستمرة تجعلنا نستقرئ دوماً المعادلات الفكرية والحضارية لنصل إلى النتائج.

لسنا ندري أهو قدرنا نحن ـ العرب والمسلمين ـ أن نظل نواجه كل أشكال الظلم والاستلاب والاعوجاج والحصار والمؤامرات، أم هو قدرنا أن نظل نقدم على مذبح القيم أفكارنا وعقائدنا ومواقفنا؟ العجيب في كل الأمور أن كافة الأمم والشعوب غير العربية والإسلامية تستطيع أن تغير تفكيرها غير مكترثة بمدى صحة التغيير أو عدم صحته.

لقد ظلت الماركسية سبعين عاماً في الاتحاد السوفيتي وفجأة تنهار دفعة واحدة وكأنها كانت شموخاً من القش أو الزجاج الهش.

ومع الانهيار باتت روسيا كما يقول الباحثون دولة من دول العالم الثالث.

الصين ذلك العملاق الذي كان يرعب، ينقلب إلى نفس جديد من التفكير والسلوك حتى رأينا زعيمها يرتدي قبعة التقليد اليهودي ويقدم احترامه بانحناءة عميقة أمام نصب الأكاذيب، نصب الكارثة والبطولة اليهودي عندما يزور فلسطين المحتلة إرضاء لزعماء الصهيونية العنصرية، وارتضت الهند أن تكون لغتها الرسمية اللغة الإنجليزية متجاوزة كل اللغات المحلية بما فيها الأوردية، التي كُتبت بها الديانة الهندوسية والبوذية والجانتية، وكتبت بها أساطير الهند التي يصعب حصرها.

إذن الكثيرون يتغيرون شعوباً وأمماً وحضارات، لغات تتغير، أفكار تنقلب وكتب تحرق أو تباع على الأرصفة من دون ثمن، فمن كان يصدق أن المادية التاريخية أو الديالكتيكية وجميع كتب ماركس وإنجلز تصبح مدعاة للسخرية والنبذ في أصقاع روسيا وغيرها من البلدان الاشتراكية الأخرى؟.

لقد أصبح كل شيء ممكناً، ولكن الذي لن يصبح ممكناً أن يصيب العرب والمسلمين ما أصاب غيرهم، اعذرونا إن كنا متحمسين قليلاً أو متفائلين، ولكن لهذا الحماس أو التفاؤل بقية باقية من كلام، هذه البقية هي جوهر ما نريد قوله، وما نريد قوله: ليس موضوع تعبير أو كلام إنشاء فالسكين وصلت حد العنق، ولم يعد بإمكاننا إلا الإفصاح عما في داخلنا يغلي ويكاد ينفجر لولا تلك الثقة بقيمنا وعقيدتنا، وإن لم نستمع لصوت داخلنا وانتمائنا العربي الإسلامي، سنضرب كفاً بكف ونقول المقولة المشهورة: أُكلت يوم أكل الثور الأبيض.

على أي حال فإن جوهر المسألة يكمن في أن بعضنا يصم أذنيه ولا يريد أن يسمع ما يقوله كبار المفكرين الغربيين والسياسيين، لقد قالها أكثر من واحد: إن الإسلام هو العقبة الباقية والخطر الباقي أمامنا، لقد حطّمنا الشيوعية وأدبياتها في كل العالم الشيوعي، واستطعنا أن نغزو بأفكارنا ونمط اقتصادنا أصقاعاً كثيرة ونوعية في العالم، إن الثقافة العربية الإسلامية بما تملكه من قيم الإسلام والانتماء للعروبة ستكون أكبر عقبة في طريق عولمتنا.

لقد قمنا في القديم بأكبر الحملات الصليبية على العرب والمسلمين، وخرجنا من بلادهم دون أن نؤثر في هؤلاء العرب والمسلمين، وعادت القدس إليهم، وقمنا بحملتنا الصليبية الحديثة إبان الحرب العالمية الأولى وقسمنا العرب وجعلناهم أنظمة تتصارع، وزرعنا فيهم روح الإقليمية وفي حكامهم روح الفردية.

لكننا خرجنا وبقي العرب.بقي المسلمون يجددون أنفسهم ويجددون أساليب مواجهتهم ودعوتهم حتى هددونا في بلداننا الغربية وأدخلوا إلى عقيدتهم الكثيرين من أبنائنا ورجالنا وفتياننا حتى تجرأ باحثوهم ومفكروهم أن يقولوا: إن دين الإسلام سيعم أوروبا في بضعة عقود.

إذن يكفي إلى هذا الحد، ولنبدأ هجومنا النوعي الذي يحطم هؤلاء العرب والمسلمين، ويحطم عقائدهم وتراثهم وثقافتهم، فلنحطم اعتزازهم وتمسكهم بإسلامهم وعروبتهم، ولنحطم ذلك الرابط الروحي الذي يربطهم بمقدساتهم وكتبهم وتاريخهم وحضارتهم.

هذا هو الخطاب الذي ينادي به كبار الباحثين المفكرين في أمريكا وأوروبا ممن تستهويهم العنصرية والفوقية والحقد على القيم السامية التي لا تتزحزح عن موقعها مهما حالوا دفعها أو إسقاطها.

لماذا يدق ناقوس الخطر

الإسلام والإرهاب صنوان هكذا تفوه الصحفي اليهودي الأمريكي توماس فريدمان وهو الأشهر بين صحفيي أمريكا وكتابها، الإرهاب لا يأتي إلا من الشرق الأوسط، وهكذا أيضاً قالها أكثر من مسؤول سياسي في أوروبا وأمريكا.

إذن ما المطلوب من وراء هذا التحريض، هل المطلوب ضرب أفغانستان مثلاً؟ هل المطلوب ضرب العراق أو الصومال أو لبنان أو المجاهدين في فلسطين؟ وهل يكون ضرب عدة مناطق عربية وإسلامية كافياً للقضاء على كل معارضي سياسة أمريكا وبعض حلفائها الغربيين؟.

إن هذه الأسئلة لسنا من نطرحها، إنما الذي يطرحها مخططو السياسة العولمية وإعلاميوها العنصريون، وهم أنفسهم من يجيب عليها، وجميعهم مجمعون على أن ضرب العرب والمسلمين في أكثر من بقعة جغرافية لن يقضي على الشخصية العربية والإسلامية، فهي ذات أبعاد تاريخية حضارية، وذات أسس عقيدية وفكرية عميقة الجذور، إذاً كيف يمكن أن نحقق انتصار العولمة الرأسمالية وقيمها دون أن يقف في طريقها انتماء قومي أو ديني؟

هل نقضي عليهم قضاء جماعياً وهذا مستحيل؟ هل نخلق بينهم النعرات الطائفية والمذهبية، وهذا جربناه وفشلنا فيه، كيف نتوصل إلى أسلوب يكفل لنا تحطيم هذه الشخصية؟ هكذا مرة أخرى يفكر الكثيرون من دهاة السياسة والفكر في العالم الغربي، لكنهم في أغلب الأحيان لا يعلنون ذلك صراحة، فالمطلوب الآن الضغط العسكري والاقتصادي والنفسي إلى أن يصلوا إلى إجماع واضح، وإلى أسلوب ظاهر يقضون من خلاله على ما تملكه الأمة العربية الإسلامية من عقيدة، وتمسك بالتراث والحضارة والثقافة.

الهوية العربية الإسلامية في المواجهة

من يفرض المواجهة؟ من يتحرك لها ويؤجج نيرانها؟

ليس خافياً علينا جميعاً أن من ينظر من الأعلى إلى جغرافية الوطن العربي والحدود المصطنعة بين أكثر من عشرين قطراً يدرك أن حالة التردي والضعف التي يعيشها وطننا العربي هي حالة لا يحسد عليها.

وهي بهذا الوضع عاجزة تمام العجز أمام أي تحرك للمواجهة إذا ما فرضت عليها، والواقع أن الذي يفرض المواجهة هو من يمتلك وسائلها المادية وقوتها غير المحدودة، وها نحن نرى الولايات المتحدة تفرض المواجهة إن أبينا أو رضينا، إن كنا ضعفاء أو كنا لا حول لنا ولا قوة، وحتى في أسوأ حالات ضعفنا لن نسلم من المواجهة، الولايات المتحدة تريد عالماً على مقياسها، وعندما يرضخ العالم العربي والإسلامي لتصور أمريكا حول مكافحة ما تسميه الإرهاب فإن الجميع يدرك أن أمريكا تريد فرض الواقع الصهيوني على المنطقة بكل إرهابه وعنصريته، فالتعرض للكيان الصهيوني خط أحمر لا يجب تجاوزه مهما حمل من صفات عنصرية إرهابية.

ونعتقد أن هذا الخط الأحمر هو جوهر تفجير المجابهة والمواجهة، بل هو جوهر الصدامات بين الشعوب وحضاراتها إن كان لها حضارات.

لقد سلم الكثيرون منا نحن ـ العرب والمسلمين ـ بالانضواء تحت ما يسمى مكافحة الإرهاب، ولكن الكثيرين منا أيضاً لا يسلمون بأي شكل من الأشكال برفع صفة الإرهاب عن الكيان الصهيوني فكيف إذاً تحل المشكلة والإشكالية؟ والواقع أن الولايات المتحدة حين تريد فرض كل تصوراتها فإن ذلك يعني خلق صدام حقيقي ومواجهة حقيقية مع العرب والمسلمين، لأن جوهر الصراع في هذه المنطقة يتجسد بمشكلة فلسطين ومنزلة القدس في العقيدة الإسلامية وكذلك المسيحية والأفكار العربية وتراثها.

ما الذي يهم الولايات المتحدة الأمريكية والتحالف الغربي من المنطقة العربية والإسلامية؟ أليس الحفاظ على الكيان الصهيوني وهيمنته وقوته المتفوقة، أليس امتصاص آخر ليتر من بترول العرب، وما الذي يهم جماهير الأمة العربية والإسلامية؟ أليس الخلاص من نير الاحتلال الصهيوني والقضاء على العنصرية الإرهابية الصهيونية؟ أليس الاستقلال الاقتصادي بعيداً عن الاستغلال والهيمنة

والقواعد العسكرية؟ هنا يكمن التناقض الكبير بين مصلحة ومصلحة، وفكر وفكر، وتصوّر وتصوّر، ولم تجد أمريكا وحلفاؤها مناصاً من تحريك المواجهة لتقضي على أي نفس عروبي إسلامي يرفض الاحتلال والاستغلال والاستلاب، ومع كل ذلك ومع كل علامات الضعف العربي والتشرذم واستلاب الإرادات يبقى رصيد الأمة قوياً في عقيدتها وعروبتها وحضارتها وتراثها، وهذه القوة التي لا تظهر على السطح دوماً تؤرق الفكر الغربي الذي يريد المنطقة بلا عقائد روحية وبلا أبعاد عروبية.

لذلك تطلب أمريكا من أبناء العرب أن يحذفوا من كتب التربية والتاريخ والجغرافيا والدين كل ماله علاقة برفض الصهيونية، وتطلب أن يكون القرآن الكريم خالياً من كل ما يتعلق ببني إسرائيل وجرائمهم القديمة والحديثة، وتطلب أيضاً حذف كل ما له علاقة بالجهاد ومقاومة البغي والظلم، ويود منظمو العولمة الأمريكية أن يصبح مصير القرآن الكريم مصير كتب الماركسية والشيوعية السوفياتية، يوضع على الأرصفة كتراث قديم ليس له قيمة، وهكذا يريدون ويودون لو استطاعوا أن يصلوا إلى ذلك.

على أي حال إذا كانت سياسة العولمة الأمريكية تعني القضاء على كل معارضيها وعدم التهاون مع كل من يقف في طريقها فإن ذلك يعني التصادم والمواجهة، ويعني أنهما حاصلان لا محالة، لأن الطرف الذي بقي وسيبقى ثابتاً في موقفه هو موقف الذين يرون العروبة كانتماء وأرض راسخة الجذور هوية يمتد عمقها آلاف السنين وما تزال حية بلغتها وتراثها وعطاءاتها، وهو موقف الذين يرون المسيح ابن فلسطين وهو يصمد بروحه وتعاليمه في وجه هؤلاء الغربيين الذي انقلبوا على الدين وعلى المسيح، وطعنوا عقيدته التوحيدية من الظهر، وهو موقف الذين يرون القرآن العظيم وهو يتحدى كل من يحاولون شطبه أو تغييبه أو شطب إسلامه الذي ينتمي له هذا الوطن العربي الكبير، وأمة الإسلام ذات الحضارة الرفيعة التي تتمدد تعاليمها وتتسع في شعاب أوروبا وأمريكا وليس فقط في مناطقها وحدودها، وإذا كنا نتحسس بدء الهجوم على الهوية العربية الإسلامية فإننا نتحسس من خلاله أن منظري سيادة القطب الواحد يرون أن العالم كله ملك لسيادتهم، ولا يجوز بنظرهم أن تكون العروبة والإسلام العقبة الكأداء في وجوههم.

ومع كل هذا وذاك وعلى سبيل التذكير فحسب، نرى أن سياسة إلغاء الأمة لن تكون سوى سياسة قميئة وفاشلة، ولو عاد منظرو سياسة القطب الواحد إلى دراسة التاريخ والجغرافية والعقيدة التي تخص منطقتنا العربية والإسلامية لوجدوا أن في تاريخ الأمة وجغرافيتها وعقائدها أسراراً للبقاء قد لا يفهمونها أو يخترقون جوهرها، فعلى الرغم من كل ما أصاب هذه الأمة من ضعف وتمزق وانحدار وإقليمية واستلاب فإن فيها من الأسرار ما يجعلها حية على مدى الزمن، فليتذكر أولو سياسة القطب الواحد أن التتار غزوا المنطقة وهددوا أوروبا نفسها وكانوا كالسيل الجارف بكل ما امتلكوه من قوة بطش وجيوش ووحشية ثم اندحروا، ولكن الأهم من ذلك كله عادوا إلى مواطنهم وهم يحملون في قلوبهم الإسلام، فبدل أن يوثّنوا أرض العروبة منحتهم هذه الأرض الرسالية روحاً عقيدية توحيدية عمتهم جميعاً وخلّصت نفوسهم من كل آثار الوحشية والفتك والقسوة والوثنية.

وليتذكروا أيضاً أن الغزوات الصليبية ظلت تهب من الغرب على مدى مائتي عام واندحرت، ولكن الأهم من ذلك كله تعلموا أن العروبة جمعت المسلم والمسيحي في التضحية والتصدي، وجمعتهما دماً واحداً يُراق على الأرض دفاعاً عن مقدساتنا، فلا ستار الصليب نفعهم، ولا خداع الدين نصرهم، وعادت أرض العروبة والإسلام تحمل للمستقبل آفاقاً جديدة متجددة من الحرية والكرامة، وليتذكر أولو الحملة الصليبية الجديدة أن هذه المنطقة صدرت للعالم كله قيماً رائعة من الحوار والحب والتسامح والبناء والحضارة، ليتذكروا أن المسيح الذي حارب الفريسيين والكتبة ولعنهم هو حي موجود يحارب بتعاليمه الغزاة الصهاينة الذين حملوا أفكار هؤلاء الفريسيين وعنصريتهم، وكرههم للحب والسلام والحوار المتساوي بين الشعوب.

فليكن أصحاب سياسة القطب الواحد ضد المسيح لأنهم حلفاء لأعداء المسيح من عنصريين يهود، وليتذكروا أن العروبة جسد الإسلام، والإسلام روح العروبة، ومحرك فعلها، فقد أحكم الله سبحانه وتعالى ما بين العروبة والإسلام، فكتاب الإسلام القرآن الكريم هو ذاته كتاب العربية الأول، وهما لا ينفصلان مهما حاولوا أن يفصلوا بين معتنقي العقيدة وبين الانتماء للعروبة والإسلام، وإذا كانوا يراهنون

على هذا الواقع العربي المتردي فإن في الأمة روح القرآن الكريم تظل حية بكل تعاليمه وقوانينه وعالميته وإنسانيته، وهم يخدعون أنفسهم إذا ظنوا أن يخدشوا هذه الروح لأن العروبة والإسلام ليسا مرحلة زمنية، فهما التاريخ كله والحضارة كلها والآفاق المستقبلية كلها.

إن الحوار الذي يصرحون به هنا وهناك ليس إلا ذر الرماد في العيون، وما قدمناه في السطور السابقة من حقائق يدحض افتراءهم بأنهم يريدون الحوار أو آنَ الأوان لفتح حوار بين الشعوب، فلا حوار إن ظلوا بهذه العقلية الاستعلائية التي تحفر للإيقاع بالمسلمين وعقيدتهم.

إغلاق الأبواب الأمريكية في وجه الصوت العربي إغلاق لإمكانية الحوار.

من المؤسف جداً أن الحملة الأمريكية الغربية على أفغانستان حشدت معها المناصر والخائف والمرتعب وحتى اللاعنين لهذه الإمبراطورية الرعناء.

ولكل الكثير من العرب انخرطوا للدفاع، عن هذه الحملة تحت ذريعة محاربة الإرهاب، أما حين تتعلق المسألة بقضية فلسطين والمقاومة المشروعة للشعب الفلسطيني فإن الإدارة الأمريكية تشطب من قاموسها وجود أمة عربية من المحيط إلى الخليج فهي ترى أن الصهيوني الإرهابي يجب أن يدافع عن نفسه بقتل الأبرياء بالمئات، وقصف المنازل والبيوت حتى التدمير الشامل.

فإذا دفعت الجرأة أحد العرب ليطلب من الإدارة الأمريكية فتح الأبواب لمناقشة ما يجري فإن الأبواب توصد بوجهه، فهي لا تفتح أبوابها، بل إن الإدارة الأمريكية تتقزز من استقبال أي عربي يريد البحث في العدوان البربري الصهيوني الإرهابي على شعب فلسطين، حين جرى ما جرى في الحادي عشر من الشهر التاسع في نيويورك وواشنطن تهافت العرب ليعلنوا وقفتهم الكلية مع أمريكا ضد الإرهاب ومن يحمي الإرهابيين، وكانت أمريكا تفتح أبوابها وذراعيها لتحضن هذا الحشد المؤيد لها على الرغم من أن طبيعة السياسة الأمريكية وعقليتها الأنجلوساكسونية تتأبى أن ترى عربياً أو مسلماً على أراضيها، أو في أروقة بيتها الأبيض، أو وزارة خارجيتها.

إذن لماذا تفتح الأبواب عندما يخص الوضع شؤون أمريكا وسياستها وأمنها؟ لماذا تفتح الأبواب لشارون وكذلك الآذان؟ ولماذا تغلق في وجه أصحاب الحق الذين تنفّذ بحقهم أبشع الجرائم الإنسانية في هذا العصر.

شارون بكل ما أوتي من عنصرية ودموية يسوّق في أمريكا مقولة: إن ما أصاب أمريكا في الحادي عشر من أيلول من هجمات إرهابية يشبه تماماً ما يتعرض له الكيان الصهيوني من علميات إرهابية من قبل المجاهدين الفلسطينيين، وما قامت به وتقوم به أمريكا في أفغانستان من قتل وتدمير يبرر ما يقوم به الكيان الصهيوني من قتل وتدمير، لأن ذلك كله يأتي في سياق الدفاع عن النفس.

أمريكا تحتضن شارون وتسمع صوته وتمنحه الضوء الأخضر ليفعل ما يريد بالشعب الفلسطيني، فلماذا لا تسمع الولايات المتحدة للصوت العربي الفلسطيني ولو مجرد استماع؟

نعتقد أن العرب يدركون انحياز أمريكا للصهاينة وممارساتهم الدموية، ولكنهم أُلجموا عن الكلام والاحتجاج إلا من رحم ربي، والعربي الذي يرفض هذا الانحياز ليس مسموحاً له أن يتكلم إلا في حشوة ثوبه، وقد أعلنتها الإدارة الأمريكية دوماً وبدون حياء أو خجل أو مواربة أنها مع الكيان الصهيوني قلباً وقالباً، وأن من حق هذا الكيان أن يذبح الفلسطينيين ويفنيهم عن بكرة أبيهم، فمن اقتنع من العرب اقتنع، ومن لم يقتنع فليضرب رأسه بالصخر أو بالجدار.

إذن متى تفتح أمريكا أبوابها ليدخل منها الصوت العربي المدافع عن قضية شعب فلسطين، وعن حقهم في الدفاع عن أنفسهم، وتحقيق حقوقهم؟

يبدو أن الوضع العربي الحالي بشكل عام لن يخرج منه صوت قوي يطرق أسماع الأمريكيين طرقاً يصدم طبلة الأذن، ولو عدنا إلى سنوات خلت لعرفنا أن الصوت العربي المحتج على سياسة الكيان الصهيوني الغاصب ودعم الولايات المتحدة لن يصل الشعيرات القصيرة المتراكمة على جوانب آذان الأمريكيين وخاصة كبار مسؤوليهم، لأن أمريكا وساستها يدركون أن هذه الأصوات مجرد كلام يُطلق في الأثير وليس وراءه أي فعل حقيقي يؤثر على المصالح الأمريكية في المنطقة أو خارجها.

فإذا كان العيب الأول في الأذن الأمريكية فإن العيب الثاني والأخطر يكمن في الصوت العربي الذي إن صرخ كان صراخه كالهمس الذي لا تُفهم لغته، ولا تسمع الأذن الأمريكية إلا لصوت نشاز كالأصوات التي خرجت مؤخراً تدين العمليات الاستشهادية الأخيرة وتعتبرها عملاً إرهابياً، فليتصور المواطن العربي كم أعادت محطة السي إن إن هذه التصريحات، فمثل هذه الأصوات العربية تُسمع في أمريكا، وتنشرها وسائل الإعلام وتكررها على الملأ، وتستثمر استثماراً كبيراً لأنها تصب في مصلحة التوجه الأمريكي الصهيوني، وليس في مصلحة الحق العربي، عندما قامت قوات الاحتلال بقتل أربعة أطفال دفعة واحدة ثم أتبعتها بجريمة قتل امرأة وأطفالها وبعض المدنيين، لم تُفتح الآذان الأمريكية لتسمع صراخ الثكالى من الأمهات اللواتي فقدن أطفالهن، ولم تسمع لصوت الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم.

وعندما يقوم أبناء فلسطين بالدفاع عن أنفسهم يصبحون إرهابيين يجب القضاء عليهم، فالرئيس بوش يصف المجاهدين الفلسطينيين بأنهم كتنظيم القاعدة يجب محاربتهم، ووزير خارجيته كولن باول يقول: إن ما يقوم به الفلسطينيون من إطلاق نار وقذف بالحجارة وعمليات ضد الكيان الصهيوني هي أعمال إرهابية، وإن من حق شارون أن يختار الرد المناسب للدفاع عن شعبه وبلده، وزير العدل الأميركي يشبّه المجاهدين الفلسطينيين بمن قاموا بتفجيرات واشنطن ونيويورك.

أمريكا تسمع لصوت شارون في لحظة صفاء وحب بين بوش ورئيس وزراء الكيان الغاصب ويتفقان أن يقوم بوش بعد هذه اللحظة بإصدار قرار تجميد أموال مؤسسة الأرض المقدسة التي ترعى الأيتام من أبناء شهداء فلسطين.

صوت الصهيونية يعلو فوق كل صوت في الولايات المتحدة، الصحفيّة الصهيونية الأمريكية جودث ميلر أول من يتصل بمؤسسة الأرض المقدسة لتخبر من يشرف عليها بقرار الإغلاق وتجميد الأموال حتى قبل أن يصدر من الحكومة الأمريكية أي دليل أو قرائن تدين هذه المؤسسة، فهذا هو الصوت اليهودي الأمريكي الصادر عن اللوبي اليهودي قبل أن يصدر أي شيء رسمي أمريكي، وهذه هي الأذن الأمريكية التي لا تستمع إلا للصوت الصهيوني.

ومرة أخرى نتساءل متى تفتح الأذن الأمريكية للصوت العربي إن وُجد هناك صوت؟ نعتقد أن الأذن الأمريكية لن تعتاد أن تسمع صوتاً سوى الصوت الصهيوني، وقادة الكيان الصهيوني، ولن تعتاد أن تسمع صوت الحق حتى لو جاء من فيتنام أو كوريا أو الصومال أو حتى روسيا لأن هذه الأذن هي جزء لا يتجزأ من التركيبة الأمريكية المعتمدة على العنصرية الأنجلو ساكسونية، فهي في حل من فهم معاني الحق والعدل والحرية للشعوب، فلا عدل إلاّ عدل المفهوم الأمريكي، ولا حرية إلا حرية الرجل الأمريكي المتفوق، ولا حق إلا حق السيادة للأقوى في هذا الكون.

وعلى الرغم من كل التشاؤم الذي يلفنا واليأس الذي يخامر نفوسنا من عدم قيام الصوت العربي بالصراخ القوي فإننا ومن باب ثقتنا بالتغيير الدائم مهما طال الزمن فإن هذه الأمة لن تظل خرساء ولن تظل بكماء لأن قدرها أن ترفع صوتها مساندة للحق والعدل والحرية وإذا كان الرعب قد دخل النفوس والقلوب وعشش فيها فإنه لا بد في النهاية أن تخرج خلية الحياة تجدد نفسها بعيدة عن الرعب والجبن والخرس.

إن ما حدث في أمريكا وما جره من رفع أصوات عربية مساندة للموقف الأمريكي لن يكون أعز مما يحدث في فلسطين المباركة من قتل وتدمير وتشريد وحصار، وتدميرُ مبنى التجارة العالمية لن يكون أعز وأهم من تدمير المسجد الأقصى، مبنى التجارة الأمريكية ليس محطة إسراء الأنبياء ومحطة حب الملايين من الموحدين، إنما هو أكبر سوق للربا وامتصاص دماء الشعوب، بل هو محفل من محافل الأغنياء الذين لا يشبعون، فإذا كان الصوت العربي قد ارتفع تعاطفاً مع ما حدث لهذا المبنى فأحرى أن يرتفع تعاطفاً مع نداء الأقصى الذي ظل يهتف بالتوحيد منذ آلاف السنين.

وإذا كان الصوت العربي قد ارتفع احتجاجاً على قتل الصهاينة في القدس أو الخضيرة وحيفا وهو يعرف أنهم محتلون غاصبون فالأحرى أن يرتفع احتجاجاً وفي كل ساعة ويوم على قتل الأطفال والنساء والشيوخ في غزة وجنين وطولكرم والخليل ورام الله وبيت لحم، وهل دم هؤلاء الصهاينة المحتلين المعتدين أغلى من الدم العربي المسلم والمسيحي الذي يراق على أبواب المساجد والكنائس والأديرة والأوقاف الإسلامية؟

مرة أخرى نعود إلى السؤال: متى تفتح الأذن الأمريكية للصوت العربي، فإذا كنا قد أظهرنا يأسنا من فتح هذه الأذن - ولنا مبرراتنا - فإننا قد نظن أن هذه الأذن التي تعودت النفاق وسماع أصوات الباطل سوف تستمع رغم طرشها للحق العربي عندما يرافق صوتنا فعلنا فيكفينا أن نخرج من قلوبنا وهم الرعب، ويكفينا فقط أن نتحمل مسؤولياتنا تجاه أمتنا وتاريخنا ومقدساتنا وأبناء شعبنا، يكفينا فقط أن نخشى لعنة الأجيال لنا، بل لعنة التاريخ ومدوني التاريخ.

وإذا كنا مصرين على أن من يكتب تاريخنا الرسمي هم ليسوا من أبناء جلدتنا إنما هم كذابون مزورون، فإننا لن نخلد في هذا الكون مهما طال بنا الزمن ولو صعدنا إلى السماء بسلم، إن الصوت العربي الذي يكره سماعه الصهاينة أعداء الأنبياء وأعداء الإنسانية وكذلك الأمريكان ومن يشنون حروبهم الصليبية لن يكون صوتاً مؤثراً إلا إذا حمل صراخه قول الحق الذي لا يخاف لومة لائم.

من خلال ما تقدم ندرك أن الروح الأمريكية وكذلك سياستها لا يعنيها الحوار بشيء لأنها آلت على نفسها أن تكون منحازة إلى الباطل دوماً، وعندما يخرج بعض الغربيين وينادون بأنه حان الوقت لفتح الحوار بين الشعوب والحضارات فإن ذلك يصبح مدعاة للسخرية، لأن ما يقولونه شيء وما يمارسونه شيء آخر ينافي بل ينفي الآخر الذي يدعون أنهم يريدون محاورته.